ثبت رياضيا صحة فرضية (نيوتن) القائلة بأن كل جسم يبقى على حالة سكونه أو حركته المنتظمة فى خط مستقيم ما لم تؤثر فيه قوة تغير هذه الحالة .

ولا يمكن تصور حركة من غير قوة سببت هذه الحركة ، وبتطبيق هذا القانون على نفسى فإننى ألاحظ أن من أجهزتى الداخلية ما هو متحرك بصفة دائمة ، فما الذى سبب حركتها ؟

بناء على هذا القانون لابد أن قوة سببت هذه الحركة ، لأن كل جسم متحرك له قوة دافعة ، هى التى سببت هذه الحركة ، فمن أين أتت هذه القوة ؟

لو أن بداية الحركة نشأت عن قوة بذلها متحرك آخر ، فمن أين أتت القوة التى سببت حركة المتحرك الآخر ؟

ويظل التساؤل قائما عند كل متحرك حتى يقف عند محرّك غير متحرك . ولكن الساكن لايمكنه أن يحرّك ، فمن الضرورى إذنْ أن تكون بداية الحركة من محرك غير متحرك ولا ساكن ، ولايمكن تحقق ذلك إلا إذا كان هذا المحرك مختلفا عن الأجسام لأن الأجسام إما ساكنة وإما متحركة .

وهذا الكون الكبير الذى نعيش فيه مفعم[٢] بصنوف من الحركة لأجسام لاحصر لها ، ولايجوز أن يكون محركها ساكنا ؛ لأنه غير قادر على الدفع الذى تتطلبه الحركة ، كما لايجوز أن يكون متحركا ، لافتقاره[٣] إلى محرك آخر ، وهكذا من غير نهاية ، ولن (يقتنع العقل) إلا بوجود محرك غير ساكن ولامتحرك ، هو الدافع الأعظم لكل هذه الحركات وموجد الحركة من بدايتها .

ومن يكون هذا المحرك الأعظم غير الموجد الذى أوجدنى وأوجد كل ما حولى؟ فالقوة المنشئة والقوة الدافعة لايمكن الفصل بينهما ، فلا إنشاء من غير دفع ولا دفع من غير إنشاء .

---

(١) د. توفيق أبو نصرة .
(٢) مفعم = ملىء .
(٣) لافتقاره = لحاجته .

العقل وأركان الدين

*****

لقد حمل القرآن علة هذا الوجود الإنسانى ، فى قوله تعالى : ﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾ ﴾[1] . هى علة نفهم ظاهرها ولانبلغ باطنها ، فظاهرها أننا مخلوقون كى نعبد الله . أما باطنها فلا تدركه العقول ، فالله فى غنى عن عبادة مَنْ عَبَد ، ولايضره كفْر من كَفَر ، لكنه قرر فى قرآنه الكريم أنه خلق الجن والإنس للعبادة ، فى أسلوب سمته البلاغيون (أسلوب القصر) إذ قصر الله أمر الخلق على أمر العبادة ، وليس لنا أن نُعْمِلَ عقولنا بحثا عن حكمته تعالى فى هذا الأمر . بل ليس من شأننا أن نبحث عن علة الكيفية التى أمرنا الله باتباعها فى عبادتنا ، بما جمعت كلمة العبادة من (شهادة ، وصلاة ، وصيام ، وزكاة ،وحج) فما لنا إلا اتباع الكيفية التى وضحها لنا الدين في ممارسة هذه الأركان بعيدا عن إعمال العقل فى سبب أداء هذه الأركان على النحو الذى أمرنا به الدين ، سواء أكان من صورة الأداء ما يستريح إليه العقل ، أم كان منها ما يعجز العقل عن تفسيره ، كالتيمم - مثلا - عند فقد الماء ، وعدم صوم المرأة - أيام الحيض - ، والطواف فى الحج ، ورمى الجمرات ، وأسلوب أداء الصلاة ، وتفاوت عدد الركعات بين بعض صلوات اليوم.

كل هذا وما يمكن أن يستوقف العقل من صور العبادة ، ليس محلا لاجتهاد العقل فى معرفة الحكمة الإلهية التى تكمن وراءها . ولوشاء الله سبحانه وتعالى أن يتيح للعقل البشرى شيئا من المعرفة فى ذلك المجال ، لهيأ العقل بما يمكنه من هذا ، لكنه تعالى هيأ العقل البشرى فى حدود المأمور به ، فجعل له من القدرات الفكرية ما يتوافق مع دوره فى الحياة البشرية على الأرض .

لقد حث الدين على التفكر ، وحضَّ على التبصر ، ونبّه إلى التدبر وكل هذا فى ظل من القدرات المحدودة بحدود الاحتياج البشرى ، والمحدودة بما سمح الله به من الأمور التى يمكن للعقل أن يتناولها ، دون أن يتعداها إلى غيرها .

فالعقل فى مدى قدراته ، كالحواس فى مدى قدراتها . فللعين مدى تبصرُ فيه ، وليس بمقدورها أن تتعدى هذا المدى فتبصر الكائنات المجهرية الدقيقة أو تبصر إلى مالا نهاية له من أجواز الفضاء ، أو تبصر كل ما خلق الله فى الجو أو فى الماء أو فى الأرض .

وللسمع مدى محدود لاتستطيع الأذن تجاوزه لتسمع كل الموجات الصوتية المحيطة بنا ، أو تسمع من بعد سحيق .

---

(١) سورة الذاريات : ٥٦ .

وللشم مداه المحدود ، الذى لايتعداه الأنف إلى شم ما طالت المسافة بينه وبين الأنف ، أو شم كل ما تصدره الأشياء من حولنا .

كذلك ذوق اللسان واللمس ، كذلك كل ما أودع الله بجسم الإنسان . فلكل شيء ، مما ركّب الله فى ذات الإنسان مدىً له حدّه ومسافته ، وقدرة لها حدها واحتمالها .

والعقل - أيضا - كذلك له مداه الفكرى الذى لايقوى على تجاوزه مهما كدّ وجدّ وتأمل ، ومهما جهد فلن يبلغ شيئًا مما يسعى إليه خارج مداه .

لقد مكّن الله العقل - فى مجال المادة - من أبعاد علمية واسعة المدى ، والمكتشفات العلمية التى تخبرنا بها الصحف وتنقلها إلينا من مختلف أرجاء الدول المتقدمة ، تؤكد هذا التمكن الإلهى ، والأمثلة غير بعيدة ، عرفها الناس فى مجال الاتصالات ، ومجال الطب ، ومختلف المجالات غيرهما على نحو لم يكن للسابقين أدنى تصور أو تخيل فى إمكان حدوثها ، وسوف يكون هناك فى المستقبل مزيد ومزيد من المكتشفات والمبتكرات المادية ، ولانعرف إلى أى مدى سوف يتقدم العقل برؤاه الجديدة ، وهى فى الوقت نفسه ليست بالرؤى العلمية المطلقة ، بل هى الرؤى المسموح بها إلى حد يقف العقل عنده ولا يتعداه هذا فى مجال المادة ، أمّا ماعداها من إدراك الحكمة الإلهية فى مجال الروح ، ومجال العبادة ، فليس للعقل فيه قدرة ، وليس للعقل أدنى إمكان فى تفسير الطقوس الدينية : لأنه لاحاجة للعقل البشرى فى تفسيرها ، ولاحاجة للإنسان فى معرفة العلة وراء كل أمر من الدين ، فالدين من الله ولله ، وهو واضعه وفارضه وليس على الإنسان إلا لزومُ ما أمر الله به ، والبعد عمّا نهى عنه دون تعليل أو تحليل ، ولو كان للإنسان نصيب من فائدة فى هذا التعليل أو التحليل لأتاح للعقل أن يصل إليه ، ومكنه من أن يدرك ما يريد إدراكه، فقد هيأه لما يفيده على الأرض وما يفيده فيما بعد الموت ، ثم حجبه عما لايقوى عليه ، وحال بينه وبين اختراق الحجب التى لاحق له فى اختراقها . وما عليه بعدئذ إلا أن يسعى بقدر ما يتمكن منه ، وأن يخضع لله خضوعا مطلقا ، وعظمة الخضوع هى فى التسليم لما أمر الله به ، والبعد عمّا نهى عنه دون أسئلة ، ودون تنقيب عن الأسباب. فإن ربط بين خضوعه لله وفهمه لأسراره فى دينه ، كان تدينا مشروطا ، ودين الله لايقوم على شروط من قبل العبد .

وخلاصة القول أن العقل فى مواجهته لأمور المادة . وأمور الدنيا له أن يفكر ويبحث ، أما فى مواجهته لأمور الدين وأركانه فليس له إلا التسليم والخضوع .

ومن دلائل نضج العقل أن يقر بهذا الأمر ، وأن يدرك أن الألوهية فوق تعليل البشر وفوق محاولات العقول وإن اجتمعت .

أما المراؤون وأصحاب الشطط الفكرى ، ومُدَّعُو التبصر ، فأولئك عند قول القائل :

قل لمن يدّعى فى العلم معرفة عرفتَ شيئا وغابت عنك أشياء

الصلاة عماد الدين

*****

حين لايقوى المسلم على أداء الحج ، فلا حرج عليه ، لأن أداء الحج رهين بالاستطاعة كما جاء فى القرآن الكريم من قوله تعالى : ﴿ وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلاً ﴾(١) فمن استطاع بماله وصحته وأمن الطريق وغير هذا من جوانب الاستطاعة كان الحج عليه فرضا ، ومن لم يستطع فلا إثم عليه .

وحين لايجد المسلم ما يقدمه من زكاة ، فلا إثم عليه ، فالزكاة مشروطة بوجود النصاب الموجب لها ، فإن وُجد النصاب وجبت ، وإن لم يوجد فلا وجوب .

وحين لايقوى المسلم على صوم رمضان ، لمرض مؤقت ، أو لعجز دائم ، فله من الفدية أو القضاء ما يعوض به ما فاته فى رمضان .

هذه أركان ثلاثة فرضها الدين على المسلم فرضا يتراوح لزومه بين القدرة وعدمها ، ويبقى من الأركان شهادة ألا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله ، ثم الركن الخامس وهى الصلاة .

أما الشهادة فهى مفتتح الإيمان بالله ، وهى المدخل إلى رحاب الإسلام ، فلا قبول لعبادة عابد من غير إعلان الشهادة . مهما كان من أشكال الأركان ، فهى الفيصل بين الحكم بالإسلام والحكم بالكفر ، فمن نطق بها كان من المسلمين ، وإن لم ينطق بها لم يكن منهم .

وأما الصلاة ، فهى الركن الذى لاحيلة للملسم فى تركها ولا عذر له مهما كانت الأعذار من مرض أو جهل أو أسر أو سفر ، وغير هذا من الأعذار .

والتشديد فى لزومها ، يقابله التخفيف فى أدائها عند العجز عن أدائها على الصورة التى وضعت عليها .

فهى لازمة ولامفر من لزومها ، ولامهرب من القيام بها على أى حال من الأحوال، فإن كان بالمصلى مرض يمنعه من الوقوف صلى جالسا بركوع وسجود على قدرته ، ومن ألزمه المرض الفراش ، صلاها بألفاظها وهو يجريها على قلبه ، ومعنى أن يجريها على قلبه أن يدخل فيها بمثل ما يدخل فيها وهو قادر ، ثم يتصور كل ما فيها من ركوع وسجود ، مع التلفظ بما يناسب الركوع وما يناسب السجود ومع

(١) سورة آل عمران : آية ٩٧ .

التلاوة المفروضة قبل كل ركعة ، ومع تلاوة التشهد فى موضعه ، ثم التسليم ، بمعنى أنه يؤديها بقلبه ولسانه بشروطها من الطهارة وعدم الانشغال بغيرها من كلام أو حركات ، وحين العجز عن استعمال الماء ، كان له أن يتيمم .

إذن فقد سدتْ كل المنافذ التى يجد فيها المسلم مهربا من أداء الصلاة ، وأغلقت أمامه أبواب الخروج عنها ، بما فتحه الدين أمامه من أبواب التيسير والتخفيف فى مزاولتها .

ذلك ؛ لأنها فى مضمونة تحمل معنى الحرص على الصلة الدائمة بالله ، وتحمل معنى الاعتراف المتكرر بوجود الله ، والاعتراف بوحدانيته ، وتحمل معنى التسبيح المتكرر لله ، وفيها معنى الخضوع لله بالقلب والجسد .

وهى التسبيح الذى ألزم الله به كل مخلوقاته دون استثناء لمخلوق ، وَفْقاً لقول الله تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَالطَّيْرُ صَافَّاتٍ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ (٤١) ﴾ . (١)

ولأن الصلاة فرض لامناص منه ، جعلها الله مع المسلم فى حال من الاستصحاب الذى فيه تطويعها لظروف المسلم وأحواله فى الصحة والمرض - كما مر - حتى لايفوت المسلم ركن هو - كالنطق بالشهادة والإيمان القلبى - فارق بين المسلم والكافر ، وفى لفظ (الصلاة) ما يدل على موقعها بين جوانب العبادة ، حيث يدل اللفظ على الدعاء ، وعلى الرحمة (٢)، وفى الدعاء استشعار الحاجة إلى الله ، بكل صور الحاجة وأنواعها وأحوالها ، واستشعار الحاجة إلى الله هو من تمام الإيمان ، لأنه إقرار بالقدرة الإلهية وحدها دون سواها ، وإقرار بالربوبية .

وأما دلالة اللفظ على الرحمة ، فلأنها رحمة من الله بعبده إذ جعله يقف بين يديه سبحانه وتعالى ، ليدعوَه ، ويسبحه ، ويُقِرَّ بخضوعه له ، وفى ذلك بعد عن عذاب أعده الله لمن توهم الاستغناء عن الله (حاشا لله أن يستغنى عنه أحد) ، فهى رحمة من الله بعبده .

والصلاة - بلزومها وأدائها بمثل ما أمر الدين - مجمع لكل الفضائل التى تجعل المسلم نقى النفس ، برىء الضمير ، عفيفا فى قوله ، أمينا على غيره ، طاهرا فى بدنه ، قويا أمام الباطل ، ضعيفا أمام الحق .لكل هذا وغيره كانت الصلاة عماد الدين .

---

(١) سورة النور آية ٤١ . (٢) انظر (المعجم الوسيط)

وإليك طائفة من الآيات القرآنية ، والأحاديث الشريفة ، فيها بيان لموقع الصلاة من التعبّد قال تعالى :﴿ اتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ وَأَقِمِ الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ (٤٥) ﴾ . (١)

﴿ قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ (١) الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ (٢) ﴾(٢) .

﴿ وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا (١٨) ﴾ (٣) .

﴿ وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفَيِ النَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ اللَّيْلِ ﴾(٤) .

﴿ فَإِذَا قَضَيْتُمُ الصَّلَاةَ فَاذْكُرُوا اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِكُمْ فَإِذَا اطْمَأْنَنتُمْ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَّوْقُوتًا (١٠٣) ﴾(٥) .

﴿ حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلَاةِ الْوُسْطَىٰ وَقُومُوا لِلَّهِ قَانِتِينَ (٢٣٨) ﴾(٦) .

وقال ﷺ : «أول ما يحاسب به العبد يومَ القيامة الصلاةُ فإنْ صلَحتْ صَلَحَ سائرُ عمله وإن فسدت فسد سائر عمله» (٧).

وقال : «أرأيتم لَوْ أنَّ نَهْرًا بباب أحدِكم يَغْتَسِلُ منه كلَّ يومٍ خمسَ مراتٍ هل يَبْقَى من دَرَنِهِ شيء ، قالوا : لايبقى من درنه شيء ، قال :فذلك مثل الصلوات الخمس يمحو الله بها الخطايا» (متفق عليه).

وقال : «رأس الأمر الإسلام وعموده الصلاة وذروه سنامه الجهاد فى سبيل الله» (رواه الترمذى فى الإيمان) .

وقال «بين الرجل وبين الكفر تَركُ الصلاة» (رواه مسلم) .

---

(١) سورة العنكبوت آية ٤٥ . (٢) سورة المؤمنون آية ١ . (٣) سورة الجن ١٨ .
(٤) سورة هود ١١٥ (الزُّلَفُ : جمع زُلْفة وهي الطائفة من الليل ، أى بعض الليل) .
(٥) سورة النساء ١٠٣ . (٦) سورة البقرة ٢٣٨ .
(٧) سائر : أى (بقية) والحديث رواه للنسائى فى الصلاة برقم (٩) والترمذى فى صحيحه فى المواقيت (١٨٨) .

الغلوُّ فى الدين

*****

الدين فى حياة الناس كافة ، هو الأساس لكل ما يصدر من أقوالهم وأفعالهم ، وهو لديهم جميعا شعور يستحوذ على أعماقهم سواء المسلم منهم وغير المسلم . وسواء من هؤلاء وأولئك من عمل بأوامر دينه ومن لم يعمل . فجميع الناس حريصون كل الحرص على الانتساب لدينهم الذى ارتضوه ، حتى وإن هجروا أوامره، ولزموا نواهيه ، وذلك أمر معلوم للناس عن بكرة أبيهم .

والناس على هذا الأمر فرقاء ثلاثة :- فريق تهاون فى أمور دينه ، فاكتفى من الدين بالانتساب إليه ، كما ذكرت شهادة ميلاده ، دون ممارسة لشىء مما أمر به دينه ، أو امتثال لما أشار به الدين . وفريق زاول أوامر الدين ، ونأى عما نهى عنه فى اعتدال لامشقة فيه ولاتهاون ، فصلى وصام وَفْقا لما عرف من الصلاة اللازمة بفروضها ، وسننها الممكنة وَوَفْقا لما عرف من الصوم بشروطه ، وأدى الزكاة عند وجود المال الموجب للزكاة ، وحج البيت عند الاستطاعة .

وفريق ألزم نفسه فى أداء فروض الدين بمالم يأمره به الدين ، فبالغ فى إنفاذ أوامر الدين على نحو فيه من مشقة البدن ومشقة النفس ماليس واجبًا، كما بالغ فى ترك المنهيّ عنه على ذلك النحو من المشقة البدنية والنفسية ، وما هو بالمأمور بذلك وما هو بالمنهىّ عن هذا .

مثال هذا : أن يجعل الرجل حياته فى إطار من المشقة الذى لايتناول فيه طعاما بمثل ما يتناوله أمثاله من ذوى اليسار والثراء ، ويأخذ نفسه فى الملبس بما يخرجه من حد التجمل المعتدل ، إلى الإهمال وسوء المنظر ، أو يأخذ نفسه فى أداء سنن الصلاة بمالايقوى عليه جسده . ومثل هذا ، من يؤدى صلاة السفر كصلاة الإقامة، فقد رخّص الله تعالى للمسافر أن يجعل الصلاة الرباعية ركعتين ، وأن يجمع بين صلاتين فى وقت واحد ورخص للصائم أن يفطر عند العجز عن الصيام بسبب من الأسباب الصحية ، ورخص للمصلى أن يصلى كيف مكنته قدرته عند المرض ، ورخّص التيمم عند مشقة الحصول على الماء وجميعها وغيرها ، هى من رخص التخفيف والتيسير التى لاتجعل الإنسان المتعبد فى حال من العسر والمشقة .

وليس التيسير فى ممارسة شعائر الدين ، أمرا توافق عليه العلماء ، أو أمرا دعا إليه أهل الوعظ ، بل هو أمر بينه الله وبينته سنة رسوله فى نصوص كثيرة منها قوله تعالى : ﴿لا يُكلفُ اللهُ نفسا إلاّ وُسعها﴾ (١) .

وقوله تعالى : ﴿يُريدُ اللهُ بكُمُ اليُسر ولا يُريدُ بكُمُ العُسر﴾ (٢) .

وقول الرسول ﷺ : «إنما بعثت بالحنيفية السمحاء»(٣) .

وقوله لأصحابه : «إنما بعثتم ميسرين ولم تبعثوا معسرين ، وإنما بعثتم مبشرين ،ولم تبعثوا منفرين . يسروا ولا تعسروا وبشروا لا تنفروا»(٤) . وغير هذا كثير من نصوص القرآن ، وسنة النبى محمد ﷺ ، وآراء الأئمة ، وجميعها تلتقى عند التيسير فى لزوم حدود الدين.

ذلك لأن الله تعالى فى غنى عن عبادة من عبده ، وليس لله من مأرب فى عبادة الناس وإن اجتمعوا كلهم على عبادته . وكذلك ليس لله حاجة فى استرضاء من كفر، ولن يزداد مُلْك الله بإيمان من آمن ، ولن ينتقص ملك الله بكفر من كفر .

فبأى سبب من الأسباب يغالى المؤمنون فى أداء شعائر دينهم ؟

ولأى سبب من الأسباب يُكْرِه الناس أنفسهم على مالايطيقون ؟

أهو التقرب إلى الله ؟

إن كان ذلك ، فقد بين الله للإنسان ما يتقرب به إليه ، وهو أداء المأمور به ، والامتناع عما نهى عنه .

أهو الخوف من عذاب الله ؟

إن كان ذلك ، فقد جاءت نصوص القرآن ونصوص السنة بأن العذاب لمن كفر وليس لمن أدى ما عليه .

أهو الحرص على ثواب الله ؟

إن كان ذلك ، فثواب الله مضمون مكفول بنصوص القرآن لمن آمن بالله ورسوله وكتبه وملائكته وبالقضاء والقدر ، ولكل من ائتمر بأمره ، وانتهى بنواهيه ، بعيدا عن التغالى الذى لم يأمر به الله .

(١) سورة البقرة آية ٢٨٦ (صدر الآية) .

(٢) سورة البقرة آية ١٨٥ . (٣) رواه أحمد فى مسنده .

(٤) رواه البخارى فى العلم (١١) ، ومسلم فى الجهاد (٤) وأبو داود فى الأدب (١٧) .

obeikandl.com

واقرأ قوله تعالى : ﴿ مَا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِن شَكَرْتُمْ ﴾ (١) .

وقوله تعالى : ﴿ قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ ﴾ (٢) .

وقوله تعالى فى أمر من لا يقوى على الصيام فى وقته :

﴿ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ ﴾ (٣) .

وقوله تعالى فى هذا الشأن :

﴿ وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ ﴾ (٤).

والقرآن فى كل هذا - وغيره - إنما ينبه المتشددين إلى أن التشدد فى ممارسة أمور الدين ليس من منهج الله فيما شرع ، وأنه ليس شرطا من شروط الإيمان .

فما بالنا ونحن نرى من يضيف إلى الإسلام ماليس فى الإسلام ، فيلزم نفسه بما لم يأمر به الله ، ومالم يأمر به رسوله ؟

وما بالنا ونحن نرى من يرى قصر الثوب شرطا من شروط الدين ؟

وما بالنا ونحن نرى من يرى استعمال اليد اليسرى خروجها على الدين؟ وما بالنا ونحن نرى من يرى استعمال مكتشفات العلم خروجًا على الدين ؟

إنه الجهل المطبق بما جاء به الدين الإسلامى .

وهو الجهل المطبق بكل ما أمر الله به ولكل ما نهى الله عنه .

ولو أنا عرفنا جلال الله ، ماساغ لنا - أبدا - أن نعبده بغيرما أمر .

ولو أنا عرفنا قدرة الله وعظمته . ما ساغ لنا - أبدا - أن نبتدع من أهوائنا وخيالنا ما ليس فى دين الله ، وما ساغ لنا أن نغلو فى دين الله . فالله سبحانه ليس فى حاجة إلى غُلُوِّنا .

ومن التطاول أن نجعل من أنفسنا مالا يطلبه الله منا ؛ ذلك لأنه يشير إلى أن العبد يعرف ما يجب لله ومالا ينبغى له ، حاشا لله أن يكون كذلك .

---

(١) سورة النساء آية ١٤٧ . (٢) سورة الأعراف آية ٣٢ .
(٣) سورة البقرة آية ١٨٤ . (٤) سورة البقرة آية ١٨٤ .

المنهاج الإسلامى فى معاملة غير المسلمين[1]

*****

وقف الإسلام موقفا متسامحا تجاه الأديان الأخرى ، كما تقررت من خلاله القواعد التى على أساسها يعامل غير المسلمين فى دار الإسلام . وما يجب على المسلمين اتباعه من تعاليم وما عليهم من واجبات من خلال القرآن الكريم الذى نظم تلك العلاقات ، فشملت كثير من النصوص القرآنية روح التسامح والعفو ، قال تعالى : ﴿ فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَاقَهُمْ لَعَنَّاهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِ وَنَسُوا حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا بِهِ وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَىٰ خَائِنَةٍ مِّنْهُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاصْفَحْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ (١٣) ﴾ [2].

وقال أيضا : ﴿ فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ ﴾ [3].

كما يتضح موقف الإسلام منذ البداية فى الدعوة للإسلام . فقد حدد وبدقة عدم إجبار الناس على الدخول فى الإسلام . قال تعالى : ﴿ لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَد تَّبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ ﴾ [4] .

ويقول تعالى مخاطبا الرسول ﷺ : ﴿ وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَن فِي الْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا أَفَأَنتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ(٩٩) ﴾[5].

وقوله تعالى : ﴿ فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنتَ مُذَكِّرٌ (٢١) لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ (٢٢) ﴾ [6] .

وقد سار الرسول عليه الصلاة والسلام على هذا المنهج ، فقد منع رجلا حاول أن يرغم ولديه على الإسلام . ويذكر المؤرخون[7] أن رجلا يقال له الحُصَيْنُ من بنى سالم بن عوف كان له ولدان مسيحيان وهو مسلم ، فسأل الرسول ﷺ عمّا إذا كان يجوز له إكراههما على اعتناق الإسلام وهما يرفضان كل دين غير المسيحية . فنهاه الرسول ﷺ عن ذلك . كما كانت إحدى نساء (بنى قُريظة) وتدعى (ريحانة) من نصيب الرسول بعد محاربة قومها ، فعرض عليها الرسول أن يتزوجها ويضرب عليها الحجاب ، فقالت : يارسول الله بل تتركنى فى ملكك وأبت أن تترك اليهودية ،

(١) نقلا عن كتاب : (معاملة غير المسلمين فى الدولة الإسلامية) د . ناريمان عبد الكريم .
(٢) سورة المائدة آية ١٣ . (٣) سورة الشورى آية ٤٠ . (٤) سورة البقرة آية ٢٥٦ .
(٥) سورة يونس آية ٩٩ . (٦) سورة الغاشية آية ٢١ - ٢٢ .
(٧) الطبرى (تاريخ الأمم والملوك) .

فقربها الرسول ﷺ حتى أسلمت بعد ذلك ، كما كتب إلى معاذ بن جبل وهو باليمن أنْ لا تفتن يهوديا عن يهوديته [1] .

كما دعا الإسلام إلى اتباع أسلوب اللين والرفق والحوار الهادىء والمجادلة بالحسنى من خلال استخدام العقل والمنطق لإقناع أهل الكتاب بالدخول فى الإسلام . قال تعالى . ﴿ وَلا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلاَّ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلاَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ وَقُولُوا آمَنَّا بِالَّذِي أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَهُنَا وَإِلَهُكُمْ وَاحِدٌ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ (46) ﴾ [2] .

ويقول تعالى : ﴿ ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ﴾[3] .

ويقول أيضا : ﴿ قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلاَّ نَعْبُدَ إِلاَّ اللَّهَ وَلا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ فَإِن تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ (64) ﴾ [4] .

واتضحت سياسة الإقناع التى اتبعها الرسول ﷺ من خلال الكتب التى وجهها إلى أمراء العرب والملوك يدعوهم إلى الإسلام [5] كذلك وضع الرسول منذ البداية الخطوط العامة للدعوة الإسلامية وكيفية التعامل مع غير المسلمين أثناء الحرب عند خروج أمراء الجيش لتأمين حدود بلاد العرب الشمالية ، وتوطيد سلطات المسلمين بها بما يتفق مع ما جاء فى النص القرآنى فيما يخص القتال فى سبيل الله، حيث يقول تعالى .

﴿ وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ (190) ﴾ [6] .

ويظهر تسامح الإسلام فى مواقفه الكريمة مع غير المسلمين فى عهود الأمان التى أعطيت لهم ، فكانوا يقيمون فى بلادهم بناء على هذه العهود تحت مظلة الإسلام وكان الأمان يشكل القاعدة الإسلامية الأساسية بعد دخول المسلمين فى البلاد المفتوحة . وبمقتضى هذا الأمان أتيح لغير المسلمين بعض الحقوق والحريات، وكان عهد الأمان الذى عقده الرسول لأهل نجران هو المثال الذى عقدت على منواله عهود الأمان اللاحقة ، فقد نص على أن (يكون) «**لنجران وحاشيتهم جوار الله وذمة**

---

(1) تفتنه عن دينه : تصرفه عن دينه. (2) سورة العنكبوت آية ٤٦ .
(3) سورة النحل آية ١٢٥ . (4) سورة آل عمران آية ٦٤ .
(5) انظر ص (٥٨) من هذا الكتاب . (6) سورة البقرة آية ١٩٠ .

محمد النبى رسول الله على أموالهم وأنفسهم وأرضيهم وملتهم غائبهم وشاهدهم وكل ما تحت أيديهم من قليل أو كثير ولا يُغَيَّرُ أسقف ولا راهب من رهبانيته ولا كاهن من كهانته وليس عليه دِيَةٌ ولادم جاهلية ولا يخسرون ولايعسرون...».

كذلك وضحت نفس الروح فى بقية عهود الأمان التى كتبها الرسول ، ومنها ماعقده مع أهل «أيلة» ذكر فيها : « هذه آمنة من الله ومحمد النبى رسول الله (ليحنة بن رؤبة) وأهل أيلة سفنهم وسياراتهم فى البر والبحر لهم ذمة الله ومحمد النبى ومن كان معهم من أهل الشام وأهل اليمن... [1] .

هذه هى الأصول التى وضعها الرسول عليه الصلاة والسلام والمستمدة من القرآن الكريم فى الدعوة للإسلام وعقد عهود الأمان مع غير المسلمين والتى ظلت المنهاج القويم الذى سار عليه خلفاء الرسول والقادة الفاتحون الذين تحملوا عبء نشر الدعوة الإسلامية شرقاً وغرباً .

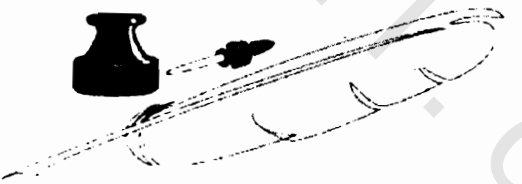

(١) البداية والنهاية لابن كثير (غزوة تبوك) .

القيم الدينية تقاوم الانحراف

*****

نعيش الآن عصر الانفجار المعرفى ، فكلما طلعت الشمس أسعدنا العلم بكشف جديد يزيد من قدرة الإنسان على التغلب على الصعاب وتسخير الطبيعة لإرادته. ولكن إنسان العصر الحديث يعيش فى رعب دائم : الخوف من الإشعاعات النووية، الخوف من تآكل طبقة الأزون وما يتبع ذلك من دمار وهلاك ، الخوف من الأمراض التى لم يكن يعرفها وتقضى عليه مثل مرض الإيدز والسرطان وغيرهما .

والأخطر من ذلك إدمان المخدرات وانتشار أنواعها المختلفة بين معظم طبقات المجتمع وخاصة الشباب ، وما ينتج عن الإدمان من تدمير للشخص المدمن واستهلاك لقدرته ولأمواله .

ولم يجد الإنسان حلا للمشكلة الأخيرة إلا التمسك بالقيم الدينية الخالدة التى تضع سعادة الإنسان وتكريمه فى المقام الأول من هذه التعاليم .

وفى دراسة عميقة عن هذه المشكلة فى أمريكا كانت نتيجتها أنه لاحل لهذه المشكلة - مشكلة الإدمان إلا بالرجوع إلى الدين ، وتقوية الوازع الدينى عند المدمن ، حتى يمكن تحويله عن انحرافه إلى إنسان سوى .

ففى المصحات العلاجية يقوم رجل الدين بمعاونة المدمنين على الخروج من محنتهم وذلك بترغيبهم فى ثواب الله ، وترهيبهم من عذاب الله مما يدفع المدمن إلى الإقلاع عما تعوده .

والقيم الدينية تدعو الإنسان ألا يفعل ما يضره أو يهلكه قال تعالى ﴿ وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ ﴾ ، ودعا الناس إلى أن يفكروا وأن يتدبروا ، ولو فكر هذا المدمن كما أمره الله ووازن بين حياة الإدمان والتى تؤدى به إلى إهمال عمله وإلى مصاحبة الأشرار ، وفوق هذا كله يهلك نفسه ويهلك ماله ، فإذا أنفق كل ماليه امتدت يده إلى السرقة وأخذ ما فى يد الغير فيدفعه إلى الجريمة فيفقد حياته أو يفقد حريته وهى أغلى شىء يملكه الإنسان .

إن التمسك بهذه القيم الدينية هو الذي يعصم شبابنا من هذه الظواهر الوافدة

إلينا من الغرب ، بل وتدفع المدمن إلى النفاق وإلى الكذب والرشوة والفساد، وكلها رزائل تدمر المجتمع ، وتشيع الفاحشة فيه . وإذا انحل المجتمع فلا يتقدم ولاينتج .

إن بعض الدول الآن تسعى إلى تحطيم أعدائها بإشاعة العادات السيئة والقيم الهابطة ، ولعل صراع الأمة العربية مع العدو الإسرائيلى خير شاهد على ذلك، فإسرائيل تحرص على إغراق الدول العربية المجاورة بالمخدرات ، وتسعى إلى شراء بعض ذوى الذمم الخربة وتستخدمهم فى نشر المخدرات بين شبابنا ، وكثيرا ما سمعنا عن ضبط شحنات كثيرة جلبها المهربون من إسرائيل ، وأحيانا تضعها فى باقات الورد وتبيعها أمام أبواب المدرسة حتى يشترى الصغار هذه الورد ، فإذا شمها مرة بعد مرة أدمن المخدر ، ثم يبدأ فى ممارسة تعاطى المخدر إلى أن يدمنه ، ويتسمم دمه ويصبح المخدر جزءاً من حياته لاغنى له عنه وحينئذ يشترى الداء ويعز الدواء .

فعلى التربويين والمصلحين فى مجتمعاتنا العربية والتى يؤثر فيها الدين تأثيرا قويا أن يربوا أبناءهم على مراعاة القيم وأن يبينوا لهم الحلال والحرام ، والحلال بين والحرام بين وبينهما أمور متشابهات ، فعلينا أن نجتنب الحرام وما فيه شبهة الحرام حتى ينشأ أبناؤنا نشأة دينية صحيحة، يحترم آدميته ، ويعتز باستقلال شخصيته ، ولا ينحرف مع المنحرفين سواء أكان الإدمان أم غيره من العادات الوافدة إلينا من الغرب كالانحلال الخلقى ولعب القمار وإطلاق العنان للغرائز الجنسية تحت شعار الحرية أو الفن ، فالحرية والفن من كل هذه الانحرافات براء .